هل شاهدتم فيلم "يافا،آلية البرتقال"؟

نهلة الشهال

وأما الإشارة إلى فيلم ستانلي كوبريك بالغ العنف، "البرتقالة الميكانيكية"، فجلية. أما الآلية هنا فتتعلق بكيفية، بتفاصيل، إحلال صورة مكان سابقتها، بحيث تختفي الأولى فتبدو وكأنها زالت. يقوم فيلم إيال سيفان الأخير ذاك (بعد رائعته "الطريق 181" الذي تشارك في صنعه مع المخرج الفلسطيني ميشال خليفي)، بعملية رصد لهذه الآلية متوسلاً برتقال يافا، ليتكلم عن الفعل الاستعماري وتزوير التاريخ. المخرج، وهو سينمائي إسرائيلي مناهض للصهيونية، قال أثناء النقاش الذي أعقب العرض: "تحت إسرائيل، توجد فلسطين"، ويقصد أنك ما إن ترفع الصورة التي صنعتها إسرائيل عن نفسها، وأحكمت سطوتها، فستجد الوقائع الأخرى، تلك الأصلية، المحجوبة، العائدة لفلسطين. وهو كان يجيب بنفاذ صبر على أسئلة ملحاحة ومتلاحقة، بدأت شابة بطرحها عقب انتهاء العرض في إحدى القاعات الباريسية، مماحكة، ساعية لاحتلال الوقت وإضاعته. وهو بالمناسبة تقليد منظم للغاية، بات معتاداً في سلوك المجموعات الصهيونية للتخريب على أي اجتماع من هذا القبيل، سيما حين ينظمه يهود مناهضون للصهيونية وإسرائيل: يتوزع على القاعة أناس من "بروفيل" متنوع، رجل مسن هنا، وشابة هناك (ممن لا يمكنك التشاجر معهم!)، يتولون طرح الأسئلة بتفاوت في "البراءة"، فيتمحور النقاش حول ما يثيرونه، وينتهي الوقت وقد فرضوا توتراً على اللقاء، وافسدوا جوه، وحرفوا الجلسة نحو ما يلائمهم...ولكن هذا موضوع آخر، لعل الفائدة الوحيدة من إثارته تخص الإشارة إلى تكتيكات التخريب السلمي التي يعتمدها العدو!

يقوم الفيلم على الأرشيف المصور بالدرجة الأولى، المحفوظ في مراكز التوثيق الفرنسية والبريطانية. وهو كذلك قام ببحث مستفيض في الأرشيف الوثائقي الإسرائيلي منذ رفع عنه التحفظ، بمرور 40 عاماً على الوثائق. يقول سيفان أن فكرة الفيلم راودته منذ إطلاعه على ذلك الأرشيف بدءاً من عام 1988. يكتشف المشاهد مقدار المساهمة الأوروبية في "صناعة" إسرائيل: ليس فحسب بفضل قرار التقسيم نفسه، وقبله وعد بلفور، وليس بفعل مد إسرائيل بالأسلحة وبالمساعدات من كل شاكلة، بل وخصوصاً، وبشكل حاسم، بفضل نسج الرواية الملائمة حول إسرائيل، وتسويقها. وهي احياناً (غالباً)تصل الى مقدار من "الكيتش" والتركيب اللاعقلاني، فتلامس المسخرة. هذا مذيع فرنسي مثلاً يمتدح الحداثة والفعالية التي يمثلهما مستوطن يحرث الأرض بجرار، بينما اللقطة السابقة ترينا فلاحاً فلسطينياً يقود ثوراً يجر محراثاً خشبياً. يعلق المذيع على الشريط بصوته الجهوري التفخيمي، كما كان مستساغاً في الخمسينات، ويقرن المشاهد بلقطات سوريالية لصحراء مقفرة، ليتبع ذلك بالخاتمة: لقد حول هؤلاء الشجعان أرضاً قفرا يابسة متروكة إلى مزارع خضراء! يتركه الفيلم يفعل، ثم يعود إلى استنطاق شهود عايشوا تلك الفترة. كانوا هناك قبل النكبة، وينقضون هذه الرواية. بعضهم يهوداً، عملوا في شركة الحمضيات البريطانية، وباتوا بعد ذلك ملاكين للأراضي المصادرة، وقد منحت لهم، أو كلفوا بإدارة الكيبوتزات. والكيبوتزات الزراعية تلك هي نسخة طبق الأصل من الكولخوزات السوفيتية. يظهر الفيلم مقدار مساهمة اليسار الصهيوني بصناعة إسرائيل. بل يتكرر استخدام تعبير "الإنسان الجديد"، وإن كان المقصود به هنا هو تحويل اليهودي إلى صهيوني، بينما جذره كان سائدا في الأدبيات السوفيتية. ويشابه النموذج الجمالي

لجموع الشبان والشابات الذين يسيرون بكل همة (شبه عسكرية) إلى العمل، مرتدين قمصاناً مرفوعة الأكمام، وسراويل قصيرة، ذاك الذي اعتدنا على مشاهدته في أفلام الحقبة الستالينية.

ويستنطق الفيلم الفلسطينيين أيضا. بعضهم من أبناء من كانوا ملاك تلك البيارات، وفقدوها بأشكال شتى، كذاك الرجل الذي بات اليوم عجوزاً، بائس الملامح والهندام: أحد أبناء آل "حسونة"، الذين كانوا يمتلكون بيارات واسعة ويصدِّرون برتقال يافا ملفوفاً بأوراق رقيقة مدموغة باسمهم، كعلامة على الجودة. كيف فقدت الأرض؟ بالقوة كما يُظهر الفيلم، فمعظم أفراد عائلات هؤلاء الذين يشهدون هنا هربوا هلعاً حين دكت المدفعية الإسرائيلية أحياء يافا بالقنابل (ودمرت ميناءها الجميل، بعدما كانت قد بنت ميناء تل أبيب ليحل محله)، فاعتبرت أملاك غائبين، بل هي صودرت ممن بقي، واعتبر غائباً حتى لو كان موجوداً: للفكرة الاستعمارية قدرة هائلة على تحويل المستعمَر إلى شبح، إنكار وجوده والشك بإنسانيته، فهو كان في أمريكا "متوحشاً"، وهو في فلسطين "بدائي"، هذا حين يُضطر إلى الاعتراف بأنه كان هنا!

يقول كل هؤلاء أنهم، قبل النكبة، كانوا يعملون كشركاء. فقد كان تسويق برتقال يافا يتم على نطاق عالمي. ويغص الفلسطينيون منهم حين يصفون لحظة الاستيلاء. يكشف الفيلم رويدا آلية الاستيلاء تلك: ليس فحسب على الأرض، وإنما على رواية الوقائع. ثمة في الفيلم الرسام الفلسطيني كمال بلاطة، وكذلك الكاتب الياس صنبر. وشاعر يهودي طاعن في السن، يتوقف هنيهة عن الكلام حين ينطلق الأذان، ثم يكمل قائلا أن الصوت لا يزعجه، "بل بالعكس"ن فهو لا يكف عن رواية أساه مما جرى.

البرتقال في فيلم سيفان يختصر فلسطين.